

## سؤال بسيط.. ولكن مكلف

لم تكن بحاجة إلى كل ذلك من قبل. لقد قاومنا المستعمرين وطردناهم. كما فعلت الكثير من شعوب الأرض من دون حاجة إلى الآلات حاسبة. ما فعلناه، في الكثير من الأمثلة، كان اندفاعاً نضالياً نؤخذ به ولا نجد منه مفراً. ما حصل، هو أننا طردناهم. وما حصل، هو أنهم صاروا، من بعد ذلك، "متحضرين" و"أخلاقين" ويحترمون القانون، بل وعادوا ليبيعوا علينا سلعاً من قبيل الحريات وحقوق الإنسان وحقوق المثليين. ما يمكن التطلع إليه، هو أن تنشأ هيئة فلسطينية تحسب التكاليف التي يتكبدها الاحتلال. والغاية لا تقتصر على قراءة مؤشرات التغيير في مسالك المحتلين، فهذا عمل أكاديمي فظ وبليد، لو أنه توقف عند هذا الحد. ولكنها يجب أن تمتد لمساعدة مؤسسة السلطة والإدارة والتفكير الفلسطينية نفسها عما يجب أن تفعله، لكي تجعل الآلة الحاسبة تحسني وتعد، أو أن تحسني وتعد هي أنفاسها الأخيرة على عار وهزيمة منكربين.

علي الصراف  
كاتب عراقي

ما من احتلال على وجه الأرض، وما من مشروع استعماري، تخلّى عن مصالحه لأن المستعمرين أصبحوا أخلاقين أو متحضرين أو أدركوا قيمة للقانون. هذا تاريخ لا يعنى عنه عاقل ولا جاهل. فما لم تكن هناك تكاليف، تزداد تأثيراً وضراً، وما لم تبلغ هذه التكاليف حداً يفوق الفوائد فإن المحتلين لن يتخلوا عن شبر ممّا اغتصبوه. عندك جار يطعم بحديقته، في البداية، أرسل أطفاله ليلعبوا فيها. ثم أقام لهم أراجيح. ثم سور الأراجيح بجدار، ثم قرر أن يبني غرفة استراحة، ثم وسّع الغرفة لتصبح منزلاً. كل هذا وانت لا تلحق به قدراً من الضرر يكفي لردعه. فلماذا لا تبلغ به الجراءة على القول إن تلك الأرض هي أرضه، وإن الله أعطاه إياها، وإن هناك مخطوطات تملك من ما قبل التاريخ مدفونة في مكان ما من تلك الأرض، وإنه يبني منزلاً فوقها ليس لأنها ملك له فحسب، بل لأنه يبحث عن تلك الوثائق التاريخية المهمة أيضاً.

ثم وهو يفعل ذلك، فإنه يقم علاقات مع جيرانك، ويشيئ دائرة مصالح مع آخرين، ثم يحاول أن يعقد اتفاقيات قبول بالواقع لعلك ترضى بربع ما بقي لك من الحديقة، ثم يحول هذا الربع إلى جبهة سويسرية لكثرة ما رمى فيه من حجارة، ثم قرر أن يستوطنها هي الأخرى. هل هناك شيء أبسط من هذا الواقع؟ فبأي معنى من المعاني يجب على إسرائيل أن تنسحب من الأرض المحتلة، وهي لا ترى ضرراً ولا تدفع ثمناً يفوق ما تصبو إليه؟ عندما خبت سياسات إلحاق الضرر بالاحتلال، وألقت رحلها خيارات المقاومة المسلحة، تصاعدت حركة الاستيطان، وتحولت أطماع إسرائيل بالأرض الفلسطينية إلى مشاريع مفتوحة الشهية وبلا حدود. ليست الصلة واضحة بين هذا

وذاك؟ ويجب الاعتراف بأن إسرائيل، كأي مستعمر آخر، لا تابه في الواقع بكلفة الاحتلال من ناحية الخسائر البشرية. ولكنها عندما تجتمع مع خسائر مادية، وعندما تتضاعف مرة بعد أخرى، فإن المستعمرين سوف يجبرون على مواجهة الحقيقة، وهي أن احتلالهم الذي بات مكلفاً أكثر من منافعه، لن يعود صالحاً للاستمرار. ولا تقلق بالقليل ولا بالكثير. فالمستعمر يستخدم الآلة الحاسبة. فعندما يبلغ الناتج الإجمالي بالنقص مرة بعد مرة، فإنه هو الذي سوف يبحث لنفسه عن أضرار أخلاقية أو حضارية أو قانونية لكي يُقنع نفسه، بأنه ينسحب امتثالاً لها، وليس بسبب ما ظلت الآلة الحاسبة تقول له. وسوف يعود ليبيع عليك أخلاقياتك لكي لا يرى نفسه ذليلاً أو مهزوماً. وأساليب إلحاق الضرر كثيرة. بل يحسن ألا تستنتج شيئاً على الإطلاق. ولكي لا تكون مجرد هذيان شعارات وهستيريا أعمال دعائية فارغة، أو كلام ثقافي أجوف، فإنها يجب أن تستعين بالآلة الحاسبة حصراً. وبين أضرار اقتصادية، وأخرى بشرية، وأخرى دبلوماسية، ورابعة اجتماعية.. فإنه المستحسن تبويبها على نحو يماثل التبوب الذي ينظر إليه المستعمرون ويشكل شاعراً مهماً لهم.



## حافظ الأسد... صنع دوراً ولم يصنع مستقبلاً

في كل وقت ورقة البعث السوري في مواجهة البعث العراقي. لعب، أقله ظاهراً، ورقة صمّام الأمان في مواجهة روح المغامرة التي لدى صدام الذي لم تكن له في يوم من الأيام علاقة بالسياسة في أي مجال من المجالات.

لم يقطع العرب مع النظام السوري، حتى عندما انحاز إلى إيران ودعمها في وجه العراق في حرب السنوات الثماني بين 1980 و1988. لم يرسل حافظ الأسد إلى إيران، بطريقه مباشرة، صواريخ كي تصنف بها بغداد. كلف معمر القذافي بهذه المهمة.

في مرتين انقذ صدام حسين حافظ الأسد سياسياً. كانت المرة الأولى عندما صالحه بعد زيارة أنور السادات للقدس في العام 1977 وذلك بغية تشكيل جبهة عربية عريضة ضد مصر. لا شك أن أحمد حسن البكر الذي كان رئيساً للجمهورية في العراق لعب دوراً أساسياً في تلك المصالحة بين حزبين يحملان اسم البعث.

بين المرة الثانية أعاد صدام الاعتبار لحافظ الأسد باحتلاله الكويت صيف العام 1990. استغل الأسد الأب تلك الفرصة لينضم إلى التحالف الدولي الذي تولى تحرير الكويت بقيادة أميركا. كانت تلك خطوة في غاية الذكاء. لم يستطع حافظ الأسد من خلال مشاركته إلى جانب الأميركيين في إعادة تأهيل نظامه فحسب، بل ضمن أيضاً السيطرة الكاملة على لبنان عندما أخرج ميشال عون، الذي ارتبط بعلاقة خاصة مع صدام، من قصر بعبدا.

بين احتلال إسرائيل للجولان في حزيران - يونيو 1967 وبين تكريس احتلالها له في أياً ما بينت أن هناك لغزاً، اسمه سرّ صمود نظام حافظ الأسد طوال نصف قرن.

هل تكشف أسرار هذا اللغز في يوم من الأيام؟ هذا ليس أكيداً. ما هو أكيد أن التورث كان الخطأ الذي توقف عنده دهاء حافظ الأسد. لم يدرك أن ابنه بشّار سيقتضي على سوريا، قبل أن يقضي على النظام. لم يدرك أن سوريا كانت تحتل لبنان في السنة 2000، لكنها خرجت منه في 2005 نتيجة جريمة اغتيال رفيق الحريري. ففي السنة 2020، تفتتت سوريا. لم يعد النظام قائماً. صار السؤال أي مستقبل لسوريا وهل بقي ما يورثه بشّار الأسد لابنه حافظ على الطريقة الكورية الشمالية؟

إسرائيل الجولان في العام 1967. كوفي على ذلك، بأن أصبح رئيساً لسوريا في شباط - فبراير 1971 بعد نجاح "الحركة التصحيحية" التي قادها في 16 تشرين الثاني - نوفمبر 1970. لم يكف بالتخلص من خصومه، بل سجنهم طويلاً ولم يطلق أيًا منهم إلا بعدما تأكد أنه صار على شفير الموت. هذا ما حصل مع صلاح جديد (توفي في سجن المرّة) ويوسف زعبي وغيرهما. كان حافظ الأسد رجلاً من دون قلب وراء ضحكة هادئة وأعصاب فولاذية. لعل نجاحه الأول كان في الإمساك بالطائفة العلوية وسقوط كل رهانات خصومه على أنّ في استطاعتهم الرهان على منافس له من داخل الطائفة. جعل من السجنين صلاح جديد ومن محمد عمران الذي أرسل من يقاتله في طرابلس، عاصمة الشمال اللبناني في العام 1972، أمثلة لكل من يريد أن يعتبر.

في مرحلة لاحقة، صار، على من لم يقتنع بعد بأن لا فائدة من الدخول في مواجهة مع حافظ الأسد، أن يتذكر مدينة حماة وما حلّ بها وبأهلها في العام 1982. لكنّ الإنجاز الأكبر لحافظ الأسد، كان على الصعيد الخارجي. استخدم الفلسطينيون أفضل استخدام كي يحتل لبنان ويضع المسيحيين تحت رحمته قبل أن ينتفض هؤلاء مجدداً بعد اكتشافهم أنّ حلف الأقليات ليس في مصلحتهم، خصوصاً أنّه كان عليهم أن يكونوا تابعين للرئيس السوري العلوي في إطار هذا الحلف. بدأ حافظ الأسد عهد اللباني باغتيال الزعيم الدرزي

كمال جنبلاط في العام 1977 عن طريق الضابط العلوي إبراهيم حويجة. كان اغتيال الزعيم الدرزي رسالة إلى كل الزعماء اللبنانيين بأنه صارت لديهم مرجعية في دمشق. من لم يرضخ، جرى تاديبه على طريقة حافظ الأسد. اغتيل بشير الجميل في 1982 ثم اغتيل رئيس الجمهورية الآخر رينيه معوض في 1989... أما التنكيل بالزعماء السنّة، فحدث ولا حرج... بقي الحليف الأكبر لحافظ الأسد، في كل وقت، عدوّه اللدود صدام حسين. لعب الأسد

خير الله خير الله  
إعلامي لبناني

ليس أصعب من الكتابة عن نكري مرور 20 عاماً على موت حافظ الأسد في مثل هذه الأيام من العام 2000. كان الرجل شخصية في غاية التعقيد والذكاء والدهاء. صنع دوراً لسوريا في المنطق، لكنه فشل في إيجاد مستقبل لسوريا. هذا ما تؤكده الأحداث التي تمرّ فيها سوريا وهذا ما يؤكده الواقع الذي تشير إليه الاحتلالات الخمسة التي على الأرض السورية. فمّة فاروق كبير بين صنع الدور وصنع المستقبل، خصوصاً عندما يكون الدور على حساب بناء اقتصاد متين ودولة القانون والمؤسسات التي لا مكان فيها للاستيلاء على المال العام أو للطفافية والمذهبية وفرض الخوات على كبار التجار والصناعيين.

استطاع حافظ الأسد أن يعمل ما لم يستطع أي رئيس سوري عمله منذ الاستقلال في العام 1946 أسس نظام لا يزال قائماً منذ خمسين عاماً. نجح في توريث السلطة، بما يذكر بكوريا الشمالية، لكنه فشل حيث كان يفترض أن ينجح لو فكر ولو قليلاً بأن فرصاً كثيرة أتاحت له كي يبني اقتصاداً متيناً وأن يعيد كبار رجال العمال السوريين إلى بلدهم والاستثمار فيه في جو من الحرية وليس في ظل القيد التي يرفضها الشريك العلوي أو أحد أبناء الشخصيات السنّة النافذة.

لم يدرك حافظ الأسد يوماً أهمية الاقتصاد والدور الذي كان يمكن لرجال الأعمال السوريين لعبه على صعيد سوريا نفسها والمنطقة كلها. لم يكن كافياً المحافظة على النظام كي يصبح ممكناً المحافظة على البلد. النظام شيء والبلد شيء آخر. هذا ما لم يدركه حافظ الأسد الذي عرف كيف يطوّع السوريين ويجعل من نفسه شبه إله في بلد متنوع كان مفترضاً أن يكون أحد أهم بلدان المنطقة بسبب ثرواته الطبيعية من جهة والثروة الإنسانية من جهة أخرى. برع حافظ الأسد في استغلال نقاط الضعف عند خصومه، مثلما برع في استخدام القمع والقسوة حيث يجب والذهاب إلى أبعد حدود في المرونة متى دعت الحاجة إلى ذلك. هل من مرونة أكبر من تلك التي أظهرها حافظ الأسد، قبيل وفاته، عندما اضطر إلى طرد الكردي التركي عبدالله أوجلان من الأراضي السورية بعدما هدد الأتراك بأن جيشهم سيدخل الأراضي السورية من حلب ويخرج من الجولان؟ لعب حافظ الأسد كل

الأوراق التي امتلكتها بحنكة. كان وزيراً للدفاع عندما احتلت

مؤسف أن يلجأ المظلوم إلى الأخلاق والقانون وهما سلعة الظالم عندما تهرمه الحاسبة، ومؤسف أن يجد المظلوم نفسه عاجزاً مرتين، الأولى عندما لا يلحق بغريمه الضرر، والثانية عندما لا ينفعه

عندما لا ينفعه القانون. فإذا اتضح أنها كذلك الجار الذي بدلا من أن تلحق الضرر به، وجدت نفسها تلعب مع أطفاله في الحديقة، وتساعد في بناء الاسوار، فسوف تفهم على من تقع المسؤولية. وسوف تفهم لماذا تزداد خسائرها كل يوم. مع ضياع البوصلة، فإن الآلة الحاسبة في البديل. فإذا كنت لا تعرف إلى أين أنت ذاهب، فعلى الأقل احسب.

إنه لمن المؤسف أن يلجأ المظلوم إلى الأخلاق والقانون، وهما سلعة الظالم عندما تهرمه الحاسبة. كما أنه لمن المؤسف أن يجد المظلوم نفسه عاجزاً مرتين، الأولى، عندما لا يلحق بغريمه الضرر، والثانية عندما لا ينفعه القانون. هذا واقع بسيط. وهو الواقع الوحيد الذي يتعين النظر إليه. ووسط كل اللغط السياسي عن الخيارات والبدائل، بل وسط ثقافة التحول إلى غصن جاف في شجرة تتعري، فإن سياسة إلحاق الضرر بالاحتلال هي الخيار الوحيد.

والضرر، يحسن أن يكون ضرراً قابلاً للحساب والتسجيل، لا كمثل فقاعات الصابون الاستعراضية التي دابت "الفصائل" على توظيفها لخدمة الشعارات الفارغة. فبمقدار ما يكون التعسف جسيماً، يكون الضرر جسيماً بمثابة أو أكثر. فلسفة عمل أخرى، هي ما تشدد الحاجة إليه. لا يهم كيف تسميها أو كيف يسميها الآخرون. التسميات من جملة الكلام الفارغ. المهم ما تحصده من نتائج. فهل تأخر الوقت على ابتداء هذه الفلسفة؟ أبداً، أبداً. اليوم هو يومها، وهي كل ما سوف يصنع الفارق بين الانتحار على أسوار الهذيان السلمي، وبين التعلق بأخر أهداب الحرية.

